في لحظة مرة وقفت أستمع لدرس الموت. هذا الدرس الذي يكرره علينا كل لحظة، ولكننا نستغلق فهمه، ونستبعد ذكره. لكنه في هذه المرة أفهمنا أن ما زال بمعنى كان، وهنا اختلفت معه. فقلت:

ألقى علي الموت درس قواعد
في كان أو ما زال يستويان

كلمة في قامة

د. عبد الرزاق حسين - الأردن

(كان) بَعْدٌ يصدع القلوب، وتتفطر منه الأفئدة. صحراء لا نهاية لها مغبرةً يقشعر منها العابر، ومحيط ظلمات تتقاذف سفينتك فيها الأمواجُ العاتية (وما زال) قُرْبٌ تصدح لهُ الألسنة، ويتدفّق فيه نهر العواطف. هو روضة المحبين، وأنسُ الألاف، ونبعٌ سلسال يروي الصادي، ويريح المتعب.

بين (كان وما زال) أهاتٌ حرّى، وأحزانٌ تتلظى. فأنت يا (كان) لا كنت، وأنت يا (ما زال) لا زلت، وأكاد أشعر أنني بين هذين الفعلين مختطف، فأنا منهما بين جذب وشد، وجزرٍ ومد . يكاد جسمي يتمزق، وقلبي يتحرّق.

يا حبّذا لو أنّ شيخي لم يزل
يُهدي بطلعته الوداد شرابا
يسقي الأحبة منه صرف وداده
والحب منه مصفقا أكوابا
لكنه أفضى إلى كان التي
دقت بقلبي أسهما وحرابا

كان بضحكته الأسرة يأسر قلوب محبيه، وبلطف معاملته يُخضعها، وبجميل تواضعه تدخل معه في حالة وجدانية لا يمثلها إلا قول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبد الإنسان إحسانُ

ما كان من ذوي الثراء ليطمع فيه من التفوا حوله، ولم يكن يشغل منصباً عالياً يَرهبُه أو يرجوه ذو مصلحة، ولكنه رجل متقاعد يعيش على راتب التقاعد، عاشقٌ للثقافة والعلم، صادق الود، أبيض القلب، لطيف المعشر، يألفُ ويُؤلفُ، تأنسُ له النفوسُ وتهفو، وتزهر به المجالس

وتزهو، وتينع به رياض الأحباب وتثمر.

ولذلك التفّت حوله كوكبةٌ من: العلماء، والأدباء، والشعراء، والكتّاب، وأساتذة الجامعات وطلابها وأحبوه، وأجلّوه، وأكبروه. هذا الرجل هو الشيخ أحمد بن علي آل الشيخ مبارك الذي اختاره الله عز وجل إلى جواره في أفضل أيامه وهو يوم الجمعة المبارك. ذلك اليوم هو التاسع من جمادى الأولى لعام ١٤٣١هـ الموافق ٢٣/٤/٢٠١٠م.

جاءني النّعي وأنا في طريقي لمطار الدمام برسالة هاتفية تحمل نبأً عزّ عليّ سماعه. فالتفتُّ إلى أهلي المغادرين إلى عمّان، وقلت: «إنّا لله وإنا إليه راجعون».

أيتها النفس اجملي جزعا

إنّ الذي تحذرين قد وقعا

فسألوني: من هذا؟ فأجبت: هو شيخ المحبين، وبقية الصالحين. ترحموا عليه، وعزّوني به. وأنا في طريق العودة إلى البيت، قلت في نفسي: سأذهب للتعزية، وأنا والله أحوج الناس لأن أعزّى به. وكان هذا الشعور هو شعور أخي الدكتور إبراهيم آل المبارك الذي عندما اعتنقنا للتعزية، قال لي: أنت من نُعزّى به.

وهذا أيضاً كان شعور أولادي وبناتي الذين اتصلوا بي عندما علموا بالخبر. فابنتي الكبيرة اتصلت بي من الأرض المحتلة تعزيني، وتقول: أعلم شدة تعلقك به ولكنه قضاء الله يا أبي.

عدت لأجهز نفسي لحضور جنازته. هي المرة الأولى التي أقود فيها سيارتي بنفسي هذه المسافة الطويلة ما بين الظهران إلى الأحساء. فقد توقفت عن القيادة لمسافات طويلة منذ ثلاث سنوات لعارض مرضي ألمّ بي. ولكنّ اعتذاري عن عدم الذهاب قد يقنع الشيخ الدكتور قيس المبارك الذي أوصى بعدم حضوري لعلمه بالحال. ولكنه لا يقنعني أنا. ولو حصل لظللت أحمّل نفسي عبء هذا الذنب. كان الطريق طويلاً عليّ. وأنا أستحثُّ دابتي للوصول. فالتحويلات تمنع من السرعة المطلوبة. ويبدو أنّ طول المسافة أعطاني فرصةً للتأمّل في حياة هذا الشيخ، وفي تلك العلاقة التي جمعتني به لخمسة عشر عاماً نلتقي فيها أسبوعياً، وربما أكثر من مرة في الأسبوع. وفي تلك الندوة التي أقمناها معاً تحت سقف مجلسه.

جاءني بعد أن انتهينا من أمسية شعرية للشاعرين: عبد الرحمن العشماوي، ويوسف أبو هلالة. أقامتها كلية الشريعة والدراسات الإسلامية مع نادي الفتح الرياضي بالأحساء، وقدّمها الدكتور خالد الحليبي وكاتب هذه السطور، وقال لي: أريدك في أمر ضروري.

لم أكن أعرف منْ هو، وما هو، ولا مكانتُه أو مكانةَ أسرته. هززت رأسي ومضيت. لم تمض فترة يسيرة، وإذا بالرجل يتصل بي، ويطلب من تواضعه أن يزورني، رحّبت بذلك. فجاءني وهو يحمل فكرة لقاء أدبي أسبوعي، ويستشيرني في ذلك وخلال الحديث، قال لي: وجهك ليس غريباً عليّ كأننا التقينا فيما سبق، تأمّلته فوجدت الإحساس نفسه، ولكني قلتُ في نفسي عندما شعرت بارتياح كبير لمعالم وجهه (الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف): لا أدري، لعلّ ذلك حصل.

فأعاد يسأل: أين عملت فيما سبق؟

قلت: عملتُ في الكويت والجزائر والرياض.

كانت محطة الرياض هي محطة التعارف المخفي بيننا، سألني: هل كنت ترتاد بعض الندوات في الرياض؟

قلت: نعم، ندوة معالي الأستاذ عبد العزيز الرفاعي (يرحمه الله).

قال: إذن هنا مربط الفرس. هناك التقينا، وهنا سنعاود اللقاء، وأريد أن تنظم ندوة على غرار ندوة الرفاعي بأسلوبها وطريقتها، وشروطها. وكان ما كان.

أما علاقتي به تلك التي امتدت إلى ما يقارب عقدين من الزمن. فلا أستطيع أن أوفيها حقها في مقالة محدودة. فالعلاقة لم تقتصر على تلك السنوات

التي أمضيتها في الأحساء، ولكنها امتدت إلى ما بعدها، فكان الاتصال لا ينقطع بيننا، والزيارة كذلك، ومن شدة حرصه جاءني على كرسيه المتحرك إلى منزلي في الظهران مع عدد من رواد هذه الندوة المباركة. فكان هذا المجيء على هذه الصورة مثلاً واحداً من الأمثلة التي لا حصر لها في تجشمه الصعاب من أجل لقاء الأحباب.

لم أجد أحداً حتى نفسي أشدّ ألماً وحرصاً على بقائي في الأحساء من هذا الشيخ الكريم الخلق. فعندما علم بانهاء خدماتي من كلية الشريعة اهتم للأمر اهتماماً كبيراً ، ولم أجده في يوم من الأيام منفعلاً وغاضباً

كذلك اليوم، دون علمي ، وعلى الرغم من ظروفه الصحية في عشر السنوات الأخيرة ، توجه إلى مدير جامعة الملك فيصل، ليقول له بالحرف الواحد: هنالك رجل إذا لم تظفروا به، فسيظفر به غيركم وتخسرون، ووضع فيَّ من الصفات ما تراه عين المحب، وما قد تبالغ به القلوب الكبيرة الحانية. فما كان من معالي مدير جامعة الملك فيصل إلاّ أن قدّر مجيء الشيخ، وقال له: دعه يقدم طلباً وسيكون ما تريد، وفعلاً اتصل بي أخي الحبيب الفاضل الدكتور محمد العمير وكيل الجامعة الآن، وكان وقتها وكيلاً لكلية التربية، وتمّ كل شيء حتى موافقة المدير، ولكنّ الله أراد شيئاً آخر، فتعثّر القبول، وتعاقدت مع جامعة الملك فهد للبترول والمعادن.

لم يكن يتوانى عن السؤال عن كل واحد منا، ومن أمثلة ذلك: أنني لم أحضر إحدى الأحديات، فلما علم بأنّ عارضاً صحياً قد ألم بي، جاءني إلى بيتي، وفي مرة أخرى أرسل لي مجموعة من آل المبارك، وهذا ديدنه مع كل الإخوة رواد الأحدية.

لا أريد أن أعرض لكل الصور الرائعة التي جعلتني أصرف مودتي خالصة لهذا الرجل لأنّ ذلك يطول، ولا أريد كذلك أن أذكر لقطات من أريحيته، وموافقه مع غيري، فهم أولى بالحديث عنها.

ولكنّ لقطة أخيرةً ستظلُّ تحفر ذاكرتي، وتستقر أمام ناظريّ لن تفارقني ما حييت، كان ذلك قبل شهرين من الآن تقريباً، عندما طُلب مني أنْ أقدّم محاضرة في الأحدية، فاشترطت عليهم أن أرى الشيخ، وكنت في السنوات الثلاث الأخيرة غيرَ قادر على تحمّل السفر البري، ولقائه والاجتماع به ، لمرض ألمّ بي أخذ مني سنتين علاجا، وفي الفترة ذاتها عانى ـ رحمه الله ـــ من جلطة أفقدته ما تبقى من قواه.

كان شرطي لمقابلته قد قوبل بشرط إن كان في حالة طيبة، وشاء الله أن أراه، وكم تمنيت أنني لم أره على تلك الحال، لحرصي على أن تبقى تلك الصورة المشرقة لذلك الشيخ الممتلئ حيوية ونشاطاً، الذي يملأ الجلسة بحضوره القوي ، جاء أحد الإخوان من آل المبارك عندما هممت بتقبيل رأسه برفع صوته ويقول: هذا الدكتور عبد الرزاق حسين يا شيخ، فرفع رأسه بضعف شديد، ونظر إليّ بعيونٍ منكسرةٍ عاتبة، وبصوتٍ لا يكاد يُسمع: أين أنت لقد أطلت عليّ؟.

كدت أبكي، بل بكيت، فسهم عينيه النافذ إلى قلبي أمضّني، وآلمني، كيف أشرح له ما حبسني عنه؟! بلعت ريقي، وقلت: حبسني حابس المرض يا شيخ، وإلاّ فأنت في القلب وعلى الرأس.

وجلست إلى جانبه، وعندما حان وقت المحاضرة، ودعته، فرفع رأسه كالمرة الأولى وقال: هذه لا أحسبها زيارة، أريد منك زيارة خاصة، وعدْتُه، ولكنّ القدر كان لوعدنا بالمرصاد، فلم أفِ للشيخ بوعدي، ولعله يسامحني بدعائي المتصل له.

أما ما التقطته من صفات في طبيعته السمحة، فأستطيع أن أقول: إنّ هذه الشخصية جماع أمور عدة، فالحياة التي عاشها، والبيئات التي تنقّل فيها، والوظائف التي شغلها، والعلم الذي قد حصله، والثقافة الموسوعية التي تجمعت لديه، والشخصيات العديدة التي عايشها وقابلها، من: ملوك، ورؤساء، ووزراء، وسفراء، وعلماء، وأدباء، كل ذلك وُضِعَ في وطاب الزمن الذي مُخِض، فخرجت منه هذه الشخصية التي استطاعت أن تفرض حضورها الاجتماعي والثقافي والسياسي، وأن تفرض احترامها وتقديرها على كل من رآها، لأنها كانت في طبيعتها، تحترم غيرها، وتقدرهم فوق أقدارهم، ويبدو أن هذا الطبع السليم، مع هذه التجربة الضخمة في التعامل مع: أشكال وألوان من الثقافات والاتجاهات والأفكار والمعتقدات، جعلت لديه القدرة على التعامل الراقي، إذ كان يرى الاختلاف، ولا يعجب منه، ويرى التناقض ويضعه في إطاره من طبائع الأمور، ولم نجد فيه حدّة في نقاش، أو تعصباً لرأي، أو اعتداداً بمكانة، ومما كنا نتعجّب له، أنّ كلّ واحد منا قد يحمل بين جنبيه شيئاً مما يحمله الأكفاء لبعضهم البعض من: ترفع، أو نظرة دونية، أو تعصب، أو النظر بعين الاستكبار أو أنف الشموخ، لمنصب، أو جاه، أو موقع، أو انتماء، وهذا ما لم نكن نجده فيه مطلقاً، فأنت تجده ميداناً سهلاً لا حَزْنَ فيه ولا وعثاء، وتصاحب فيه قلباً نقياً، وصدراً سليم الطوية، لا يضطغن، ولا يحقد، لم أحس، والله، يوماً بأنه يفرق في المعاملة مابين شخص وآخر، وإن اختلف معه في الرأي والاتجاه والمذهب والانتماء، كنت أراه نبعاً رقراقاً، والنبع الرقراق ترى من صفائه حصباءه.

ولذلك قلت في حفل تكريمه: هناك عديد الأمثال التي ضُربت في الصفاء، كصفاء عين الديك، وصفاء ماء المفاصل، فقلت: يجب أن يُضاف مَثَلٌ جديد، هو (أصفى من ودّ ابن المبارك) وإذا أردت أن أستطرد فإني أقول:

قرأت كثيراً من معاني المدح على مدار عصور الشعر العربي، ولا أبالغ إذا قلت: إنّ كثيراً من هذه المعاني يتجسد في هذا الشيخ الفاضل، فتزوره وتثقل عليه، ويشعرك بأنه هو الزائر المُثقل، يُعطي وكأنّه هو الآخذ، يبذل من جاهه لك، ويشعرك بأنّك المتفضّل عليه، يقدّر ويحترم من صَغُرَ ومن كَبُرَ، وكلنا أصغر منه، وإذا ما بادلته التقدير والاحترام نفسَه مع استحقاقه له، يرى أنّك بالغت في احترامه وتقديره، يذكّرك بأحسن النعوت وأفضل الألقاب، وإذا ما جئت تبادله ذلك يأبى.

كثيراً ما قال لي ولغيري: يا أستاذي، وإذا ما ذُكر أحدنا، قال: أستاذُنا الدكتور فلان، فكنا نقول له: بل أنت أستاذُنا، فيهزُّ رأسه، ويقول: أنتم طلائع الأمة وأساتذتها، ولا يغمطكم حقّكم إلاّ جاهل.

تعطيه المعلومة وهو أعرف بها، فيُسَرُّ بها، وكأنه يسمعها لأول مرة، يُقبل عليك إقبالاً تُحِسُّ معه أنه يخصّك بهذا الإقبال دون غيرك، وغيرُك يشعر بما تشعر به، كثيراً ما أشعرناه بانزعاجنا من بعض المتطفلين الذين لا يحملون حتى البضاعة المزجاة من الأدب، وكنا نقول له: لو حضر أحدٌ من الأدباء أو العلماء من خارج الأحساء، وسمع ما يقول هؤلاء لفَضَحْنا، فيبتسم ابتسامة هادئة ويقول: لا أستطيع أن يتفوه لساني بكلمة إحراج لأحد، هذه ندوة مفتوحة.

بعض المتطاولين كذلك كان يتركهم وشأنهم ولا يوجه لهم أدنى إشارة بامتعاضه من سلوكهم - يتحمّل الأذى بنفس رضية، وصدر راسع، يحملُ الجميع ويحتملُهم، ويرى أنهم أصحابُ حق لديه، وعليه.

لم يكن في ندوته يشعرنا بأنه صاحبُ فضل، بل يعيد الفضلَ لرواد هذه الندوة الذين هم - في رأيه - تواضعوا، وصرفوا من وقتهم وجهدهم في إنجاحها.

الأمر الثاني الذي أريد أن أبينه في هذا المقال هو: هذه الندوة التي بدأت عام ١٤١١هـ، والآن مضى عليها عقدان من الزمان، فقد حرص عليها الحرص كلَّه، لدرجة أنه كان يعتذر عن بعض الأمور المهمة، ولا يعتذر عن الندوة ولو لمرة واحدة، ذهبنا لحضور الندوة في إحدى المرات، فجاءنا وعليه علامات وعثاء السفر، وبعد أن سألناه، قال: وصلت الآن!.

هذا الحرص الشديد لم يكن نابعاً من أنّ رجلاً ذا حيثية معينة يريد أن يقطع وقته، ويسلّي نفسه، أو أن يركب هذا المركب حباً في الظهور والشهرة، فمتطلبات الندوة، والقيام عليها، والحرص على نجاحها جهدٌ ليس بالجهد المقل، وإنما هي: رباط، وتكاليف، وعهدة، والتزام، ومسؤولية يتحملها وحده.

ومثل هذه الندوات تقاس بمدى إنجازها، وتقدَّر بقدر ما قدّمته للمنطقة، وللفكر، ولروادها من عطاء، وإذا أردت أن أوجز عطاء هذه الندوة، فإنه يتمثل في الآتي:

- قدّمت هذه الندوة على مدى سنواتها العشرين مئات المحاضرات والندوات، وصدر على أثرها عديد من المقالات والدراسات والبحوث.

صدر بأثر هذه الندوة عدد من المؤلفات، أذكر منها: كتابين عن الشيخ أحمد، وهما:

١. كتاب الشيخ أحمد بن علي آل مبارك رائد الأدب الأحسائي الحديث حياته وأدبه، تأليف الأستاذ خالد الجريان والأستاذ عبد الله الذرمان، وصدر عن مطابع الكفاح لعام ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٢ - وكتاب: أحمد بن علي آل الشيخ مبارك شيخ أدباء الأحساء في العصر الحديث في عيون معاصريه تأليف الدكتور خالد الحليبي، وصدر عن المهرجان الوطني للتراث والثقافة عام ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

ثم صدر للشيخ نفسه كتابان، هما:

كتاب رحلة الأمل والألم، عن مطابع الشرق في الدمام عام ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

وديوان شعره بعناية الدكتور بسيم عبد العظيم.

ومن أثر هذه الندوة صدر كتاب عاشق الأحساء لكاتب هذه السطور، إلى جانب ما أثارته من موضوعات كانت مثار دراسات عليا، وبخاصة في جامعة الملك فيصل.

- قامت بعمل رائع وهو ذلك التعارف الذي لو لم تكن لم يتم بين أساتذة وأدباء وعلماء المنطقة من كل الجامعات والكليات، فجامعة الملك فيصل، وكلية الشريعة التابعة لجامعة الإمام، وكلية المعلمين، وكلية التربية للبنات، والكلية التقنية، وغير ذلك من رجال الأعمال والمال، والمناصب الرفيعة في الدولة كلّهم كانوا يتلاقون، ويتعارفون، مما أوجد أوسع علاقة اجتماعية بين هذه الفئات المثقفة، وأظن أنّ هذا الأمر ليس بالأمر الهيّن.

- استقطبت هذه الندوة علماء كباراً، ومفكرين مشهورين، وأدباء معروفين، وشعراء مبدعين، من

مختلف المناطق داخل وخارج المملكة.

ـ أثارت حركة ثقافية في المنطقة، فنشأ على غرارها وبتأثير منها عددٌ لا بأس به من الندوات الأدبية في مختلف مناطق الأحساء، فكانت لمكانتها وشهرتها هي الباعث والنموذج.

حرص الشيخ على استفادة الناشئة من حضور هذه الندوة، والالتقاء بكبار حضورها ليسمعوا منهم، ويتعلموا، ولترفد حصيلة تجربتهم في المستقبل.

الأمر الثالث ــ الرد على بعض الرؤى والمواقف من المكانة الأدبية للشيخ أحمد بن علي آل مبارك.

قرأت بعض ما صدر وهو قليل يستنكر إضفاء الألقاب الأدبية الكبيرة على الشيخ، وليس له إنتاج أدبي يؤهله لهذه الألقاب، بل والدخول في بعض كلمات الثناء وتتبعها وانتقادها، ولست بصدد الرد عليها، فلكل رأيه الذي يراه، ووجهتُه التي يوليها، واختلاف الآراء وُجِدَ مع هابيل وقابيل، وسيستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولكني كما ألزمت نفسي في هذه المقالة بتوضيح الأمور، أقول:

لعلّ العارفين في ميادين العلم والفكر والأدب، يعرفون أن ليس كلُّ عالم أو مفكر أو أديب، لا يُطلق عليه ذلك إلاّ من خلال نتاج يُثبِتُ به هذا اللقب، فنحن على ما نعرفه عن كثير من علماء السلف، أنّ بعضهم كان عالماً قدّم علمه لطلابه، ولكن لم يؤثر عنه مؤلف واحد، فأبو عمرو بن العلاء على مكانته الضخمة في اللغة والعلم والإقراء فهو من القراء السبعة، ومع ذلك لم نجد له مؤلفاً واحداً، بل إنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي لولا تلاميذه الذين حرصوا على تدوين ما أعطاهم لما عهدنا له شيئاً، وكثيرٌ غيرهم، مما لا يتسع المجال لذكرهم.

والشيخ أحمد نال مكانة أدبية، بعلمه، وبثقافته الواسعة، ولولا ذلك ما اختارته جامعة الملك فيصل ليكون أستاذاً متعاوناً معها، ولما حصل على جائزة الدولة التقديرية، وأصبح عضواً في مجلس إدارة نادي جدة ونادي الشرقية الأدبي، وعضواً في رابطة الأدب الإسلامي.

أما أنّ ما صدر عنه لا يعطيه هذه المكانة، فكم ظلّ يتحرج من إصدار ذلك، ولولا شدة إلحاح محبيه عليه بذلك لما أصدر شيئاً، وهو ليس نسيجَ وحده في ذلك، فعدد ليس بالقليل من العلماء والأدباء لا يحبذون نشر شيء من أعمالهم، إما لتواضعهم، أو لأنهم يرون أن الزمن قد تجاوز كتاباتهم، أو لظروف أخرى لا نعرفها، وقد كتبت عن شعر إحسان عباس في مجلة العربي عدد ٦١٢ الذي لم يُعرف شاعراً إلاّ قبل موته بقليل، وهو الذي أصدر عشرات الكتب، ومع ذلك لم يرد إصدار شعره لولا أن أقنعه بعض مريديه بذلك، وأعرف كثيراً من المعاصرين شعراء وأدباء لم يصدر لهم شيء على الرغم من كثرة نتاجهم.

وأما مصطلح الريادة التي فهمها البعض خطأً بأنها تعني الوصول إلى الغاية في الأمر المرود، فذلك تصوُّر خاطئ، وفهمٌ قاصر، فالريادة تعني نقطة البداية، تعني لفت الانتباه لقضية أو فكرة، أو عمل، أو نظرية، فالرائد يضع حجر الأساس، أو اللبنة الأولى، ويأتي مَن بعده فيعملون ويطورون حتى يصلوا إلى غايات الكمال، فعندما نقول: فلان رائد القصة القصيرة في بلد ما، فقد يكون ما قدمه لا يتفق مع فنية القصة التي وصلتنا إليها، ولكنه كان مُشْعِلَ عود ثقابها، ودليلنا على ذلك أن عباس بن فرناس هو رائد علم الطيران، والذي ينظر إلى ما وصلت إليه صناعة الطيران من طائرات عملاقة، وصواريخ عابرة، وسفن فضاء، سيرى أنّ عمل ابن فرناس كان عملاً صبيانياً!.

هذه أمور وقضايا أحببت أن أثيرها، وأن أوضحها من خلال رؤية خاصة، ومعرفة عميقة بالشيخ القاضي، هو قدّم ما عليه، وأفضى إلى ربه، سقيه سحائب رحمة ربي الغفور الرحيم ■